هنا الحرية

جمع وترتيب

د. محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

عفا الله عنه



ƙ ƘooooƍĞ ǩł Ǭƽł

هنا الحرية

ǜ ooooooǩƐǮǩł Ǭƽł

د. محمد بن أحمد إسماعيل المقدم

ǔooooooooooooooooooooo: ǎ ǢǩŁ **جيــب**

ƟƘƮǞdžǩł ƳƴǕ : **٤٨ صفحة**



بسم الله الرحمن الرحيم

(الحريـة) كلمـة جميلة تأخـذ بالألباب، ومقصد سـامٍ يسـعى كل عاقـل إلـى تحقيقه، إنهـا كلمة رنانـة محببة إلى النفـس، لهـا عذوبـة في الأفـواه، ولـذة في الأسـماع، تهتـز لذكرهـا النفوس الأبية، ويتألم الأحرار لفقدها، الحرية عند بني الإنسـان أنشـودة لم ينقطعوا عن ترديدهـا عبر الزمان، تغنى بها الشـعراء، ونادى بتحقيقهـا المصلحون ورجالات الأمم، ووُضِعَـت المخططاتُ للحصـول عليها والتخلص من أسـر العبودية، وبذلت الأمم في سبيل تحصيلها الأموال والأرواح، وجعلـت اليوم الـذي حصلت فيـه عليها عيدًا، ومهمـا قلَّبتَ صفحاتِ التاريخ، ونظرتَ في حياة الشـعوب

فإنك لن تجد أمة تستعذب طعم العبودية، وتمقت الحرية.

ولكنَّ دائرة العبودية التي يهرب منها البشر دائرة ضيقة، يظنون أنهم إن تخلصوا منها فقد تحرروا، وواقع الأمر ليس كذلك، فتراهم يرسفون في قيود العبودية المقيتة وهم لا يشعرون، ويحتفلون بأعياد الحرية وهم غرقى في أسر العبودية.

إن العبودية التي يمقتها الناس هي التي تجعل الإنسان مملوكًا لغيره بحيث يُصبح متاعًا يُباع ويُشترى لا يملك أمر نفسه، ويَعُدُّ البشر من العبودية والهوان أن تَستذلَّ دولةٌ دولة، وجماعة جماعة، وأمة أمة.

ولم تزل التجمعات البشرية في مختلف العصور يبغي بعضها على بعض فيستعبد القوي الضعيف، ويقهر الغالبُ المغلوبَ، ويسخره في مصالحه، ويأخذ ثمرة تعبه، وخير أرضه، وقد يصل قهر الأقوياء إلى حد ذبح الرجال والأطفال،

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص:٤].

والعالم المعاصر لم يتخلص من هذه اللعنة، وإن كان يغلفها بغلاف جميل براق، فالأمم القوية في هذا العصر استعبدت الأمم الضعيفة باسم التمدن والتحضر والأخذ بيد هذه الأمم الضعيفة.

وهذا النوع من استعلاء البشر يرفضه من أصابهم، ويجاهدون في سبيل الخلاص منه، وإن رضيه ضعاف النفوس الذين استمرؤوا الظلم، ورضوا بمعيشة الهوان.

ذلَّ من يغبط الذليلَ بعيش
رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

* * *

تفاوت الناس في فهمهم للحرية

الحرية كلمة واحدة، لكن فهمها الناس بصور متعددة[1]، ولذلك استُعملت في غير معناها الحقيقي، واستُغلت كشعار براق تُزَيَّن به مذاهب فكرية، ونظم سياسية، واجتماعية، وجعلته الماسونية أحد مبادئها، ورفعته الثورة الفرنسية شعارًا لها.

وحاولت (**الوجودية**) تعريف الحرية بأن لا يكون هناك جهة تفرض على الإنسان أي قيد، لأن هذا في زعمها يعني عدم الاختيار.

وحاول بعضهم تقييدها برفع شعار: «أنت حر ما لم تضر»، وقالوا: «القيد الوحيد الذي يَرِدُ على حرية الفرد هو التعارض مع حرية الآخرين، وما عداه من قيود إهدار للحرية».

وهذا القيد يهدم مبدأ: «إن الحرية غير قابلة للتقييد»،

(١) الحرية من أوسع المفاهيم الإنسانية، وأكثرها تعريفًا، وقد ذكر بعض الباحثين أن لها أكثر من مائتي تعريف.

ومع ذلك قد تبين أن هذا القيد وحده لا يكفي لتحقيق الحرية الحقيقية التي يتطلع البشر إليها، بل إنه يدمر الحرية، فليس للإنسان أن يتبع هواه بغير هدًى من الله، وكما أن الإنسان يجب عليه أن لا يؤذي الآخرين؛ فكذلك ليس من حقه أن يؤذي نفسه، واتباع الهوى بغير هدى من الله وإن كان ظاهره أنه لا يعارض حرية الآخرين أحيانًا بيد أنه في الواقع يخرق سفينة المجتمع، ويستدعي حصول العذاب العام، ومن أجل ذلك شرع الإسلامُ الحدود والتعزيرات، وأمرنا بالأخذ على يد السفيه امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥].

وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع (وفي رواية: والراتع) فيها، [والمُدْهن فيها]، كمثل قوم استهموا على سفينة [في البحر]، فأصاب

بعضهم أعلاها، و[أصاب] بعضهم أسفلها [وأَوعرها]، فكان الذي (وفي رواية: الذين) في أسفلها إذا استقوا من الماءِ فمروا على من فوقهم [فتأذوا به]، وفي رواية: فكان الذين في أَسفلها يصعدون فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أَعلاه، فقال الذين في أَعلاها: لا نَدعكم تصعدون فتؤذوننا)، فقالوا: لو أَنا خرقنا في نصيبنا خرقًا [فاستقينا منه] ولم نؤذ من فوقنا، (وفي رواية: ولم نمر على أصحابنا فنؤذيهم)، [فأخذ[٢] فأسًا فجعل ينقر أسفلَ السفينة، فأَتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولابد لي من الماء]، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا وأَنجوا جميعًا»[٣].

وعن أم المؤمنين زينب -رضي الله عنها- أن

(٢) أي: أحدهم.

(٣) رواه البخاري وغيره، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم [٦٩].

النبـي -صلـى الله عليه وسـلـم-: دخـل عليها فزعًـا يقول: «**لا إلَهَ إلا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ من شَـرٍّ قد اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ من رَدْمِ يَأْجُـوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هذه، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِه الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا**» قالت: فقلت يا رَسُـولَ الله: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قال: «**نعم إذا كَثُرَ الخَبَثُ**» [٤].

* * *

ŋǽƩƮǬǩ ƬǾƮdžǩƚ ǫǸǶĀƷǩƚ

الطريق إلى الحريـة الحقيقية واحدٌ لا ثاني له، ألا وهو العبوديـة لله -عز وجل-، كما بينـه الله تعالى القائل: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [**الملك: ١٤**].

إن الحريـة الحقيقيـة هـي التحرر مـن عبادة غيـر الله، وإفراد الله سـبحانه باسـتحقاق العبودية، وهذا هو معنى: «لا إله إلا الله»: الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله.

إن (**الكلمـة المقدسـة**) «**لا إلـه إلا الله**» التـي هـي

---

(٤) متفق عليه.

(صرخـة الحرية) تبدأ بثورة ممثلة في شِـقِّ النفـي: «لا إله» التي تعني الكفر بكل ما عُبد من دون الله، قال -عز وجل-: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ[٥] وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقـال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وهـو نفس ما صَرَّح به خليل الرحمن -عليه السـلام- حيـن خاطـب قومـه قائـلًا: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف].

---

(٥) **الطاغوت**: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، ويُطلق على الشيطان والكُهان، وكل ما عُبد من دون الله، وقد حَدَّه الإمام ابن القيم رحمه الله حدًّا جامعًا، فقال: «الطاغوت: كل ما تجاوز به العبدُ حَدَّه، من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم: مَن يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله» اهـ.

إن الإنسـان فقيـر بذاتـه يتطلـع بفطرته إلـى الخضوع والذل و(العبودية) لخالقه وفاطره الغني بذاته:

والفقرُ وصفُ ذاتٍ لازمٌ لي أبدًا

كما الغنى أبـدًا وصـفٌ لـه ذاتـي

فمِن ثَمَّ لا يسـتقيم حالـه، ولا يطمئن قلبه، إلا إذا آوى إلـى مـولاه، وطرح نفسـه على عتبتـه، وأمعـن في العبودية الخالصـة لـه دون سـواه، إذ إن هـذه (**العبوديـة**) هي أرقى مراتـب الحرية، لأن العبـد إذا تذلل إلى مـولاه وحده فإنه يتحـرر من كل سـلطان، فلا يتوجه قلبه، ولا يطأطئ رأسـه إلا لخالق السماوات والأرض.

ولابد للإنسـان من (**العبودية**) فـإن وضعها موضعَها، وإلا تلطخ بالعبودية لغير الله تعالى من الأنداد والشـياطين، والمسـلم يتحرر بإسـلامه مـن سـيطرة الهوى والشـهوة، والسـلطان الذي يسـيطر عليه هو سـلطان الدين الحنيف،

قال تعالـى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعـات]، إذن هـي حريـة في صورة العبودية، ولا يمكن للبشرية أن تتحرر حقًّا إلا بتحقيق هذه العبودية.

إن الحريـة في غيـر الإسـلام تصبـح جوفـاء لا معنـى لهـا، بل هي العبوديـة المذلة المهينـة، وإن بدت في صورة الحرية، إن الخضوع للطواغيـت والمناهج والقوانين التي بُنيت على ما تهواه الأنفس بعيدًا عن تشريع الخالق جَلَّ وَعَلَا إنما هو عبودية لغير الله، وأيُّ عبودية؟!

هـربـوا مـن الـرِّقِّ الـذي خُلِقوا له
فَـبُـلُـوا بِـرِقِّ الـنفـسِ والشيطانِ

وقال الشاعر:

ورقُّ ذوي الأطماع رِقٌّ مخلدُ

وقيل: «عبد الشهوة أذل من عبد الرق».

ومن ذلَّ وخضع لغير الله؛ فقد انتقص من حرية نفسه، بمقدار خضوعه وذلته لغير ربه -عز وجل-.

«إن مفهوم العبودية لله في الإسلام يعني الحرِّيةَ في أرقى صورها وأكمل مراتبها، العبودية لله إذا كانت صادقة تعني التحرر من سلطان المخلوقات والتعبد لها، فالمسلم ينظر إلى هذا الوجود نظرة صاحب السلطان، فالله خلق كل ما فيه من أجلنا، وسخَّره لنا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

وما دام الأمر كذلك فالمسلم لن يخضع لهذه المخلوقات، ولن يقصدها؛ لأنها أقل منه شأنًا، فهي مخلوقة لنفعه وصلاحه.

والمسلم لن يستعبده إنسان مثله، فالناس جميعًا عبيد الله، فإن حاول بعض المتمردين من بني الإنسان أن يطغى ويبغي؛ وقف المسلم في وجهه يقول كلمة الحق، ويذكِّر

هؤلاء بأصلهم الذي منه خُلِقوا، ومصيرِهم الذي لا بدَّ لهم منه، ويذكِّر هؤلاء بضعفهم وعجزهم، علَّهم يفيقون ويرجعون، وبالعبودية لله يتحرَّر الإنسان من أَهْوائِه، فالهوى شَرُّ وثنٍ يُعْبد: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣] فالهوى قد يُجعل إلهًا معبودًا يسيطر على نفس صاحبه، فلا يصدر إلَّا عن هواه، ولا يسعى إلَّا لتحقيق ما يبعثه إليه، والإسلام يعتبر الخضوع لأهواء النفس التي تدعو إلى المحرمات والآثام عبودية لهذه الأمور، أمَّا التسامي عمَّا تدعو إليه النفس من المحرَّمات وإن كانت محبوبة للنفوس فإنه يمثل في الإسلام الحرية الحقَّة، لأنَّه وإن قُيدت حرِّيته من جهة، بأن أُلزِم بترك بعض ما يشتهي، إلَّا أنَّه تحرَّر من سلطان الهوى من جهة أخرى.

والذين يزعمون أنهم يستطيعون تحقيق الحرية بعيدًا عن الله ومنهجه مخطئون، لأنَّ الإنسان، بل كل مخلوق، سيبقى

عبدًا شاء أم أبى، إلَّا أنَّه إن رفض الخضوع لله اختيارًا؛ فسيخضع لمخلوق مثله، لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا، بل قد يخضع لمن هو أقل منه شأنًا، وبذلك يكون قد استبدل عبودية بعبودية، ولم يخرج من العبودية إلى الحرية، بل خرج من عبودية الله إلى عبودية الطاغوت، وثنًا، أو صنمًا، أو بشرًا، أو شمسًا، أو قمرًا...، وقد ذمَّ الله كلَّ من كانت هذه صفته قال -عز وجل-: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠]، فمما ابتلاهم به جزاءَ تكذيبهم أن جعلهم عبيدًا للطواغيت بعد أن كانوا عبيدًا لله.

وفي هذه الأيام تتردَّد كلمة الحرية، ويزعمون أنَّ الثورة الفرنسية أعلنت هذا المبدأ، وأنَّ هيئة الأمم المتحدة أقرت الحرية مبدأ، وليس الأمر كذلك، فإنَّ ما فعله هؤلاء أنَّهم أخرجوا النَّاس من عبودية نظام وقانون وطائفة، إلى عبودية نظام آخر، وقانون آخر، وطائفة أخرى، ولكنَّ هؤلاء جميعًا

بقـوا عبيـدًا، وإن ظَنُّوا أنفسـهم أحرارًا، ولـن يحرِّرهم من سلطان البشر ويخلصهم من العبودية الظالمة إلا أن يكونوا عبيدًا لله، يقصدونه وحده، وعند ذلك يتحرَّرون من سلطان الآخرين، حتى من هوى النفوس التي تتردَّد في أجسادهم.

وأكثـر النـاس بعـدًا عـن العبوديـة لله هم أكثـر الناس عبوديـة لغيـر الله، فهؤلاء الشـيوعيون أعظم النـاس تمردًا على الله وبُعدًا عنه، يستكبرون حتى عن التصديق بوجوده، وهـم أعظم النـاس عبودية لغيـر الله، فالفئـة التي حكمت الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، والتي ما زالت تحكم الصين تسيطر على رقاب الناس سيطرة كبيرة، فلا يكادون يجدون طعم الحياة. والحرية هناك وهم كبير، وسراب خادع، أراد الشـيوعيون أن يتحرروا من سلطان الله، فأقاموا الدولة إلهًا تصادر حرية الأفراد، وتمنعهم من إبداء الرأي، وتتحكم في ممتلكاتهـم، وتسـوق الملايين إلـى المعتقلات في صحراء

سـيبيريا، وإلى السـجون التي غصَّت بالنزلاء على سَـعَتها وكثرتها..

لقـد أخرجـوا الناس من ظلمـات متراكمـة إلى ظلمات أشـد، وأخرجوهم مـن عبودية إلـى عبودية، ولـن يكون من مخلـص من العبودية لغيـر الله إلا هذا الإسـلام، ولقد صدق مُوفَـد المسـلمين، وبـرَّ حيـن واجه قائـد الفرس قائـلًا: «الله ابتعثنـا لنخـرج العبـاد من عبـادة العباد إلـى عبـادة الله، ومن جـور الأديـان إلى عدل الإسـلام، ومن ضيق الدنيا إلى سَـعَة الدنيا والآخـرة»، وكل من لم يرض بالإسـلام دينًا، وبحكمه حُكْمًـا، فإنَّه غارق في قـاذورات الجاهليـة: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، والذين يرفضون أن يكون الله معبودهم فإنَّهم يهينون أنفسهم بتعبيدها لمخلوقات أقل منها شأنًا، وأحقر منزلة، وهم في ذلك يَدُسُّون هذه النفوسَ، والإسلام يعدُّ الذي يكون جلَّ همِّه وغايةَ مطلبه

الدينارُ والدرهمُ والملبسُ والمأكلُ، عبدًا لهذه التي سيطرت على نفسه، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، تعس عبد الدرهم، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»[(١)] اهـ[(٢)].

***

ŋæYǸɯūƙƚƿ ŋæƩƮƙƚ ƤØ f ǰǭ ƻ ƘDzƙƚ ǫƙ ƨ ǡ

قد فصَّل الإمام المحقق ابن قيم الجوزية أقسام الناس في هذا المقام، فقال رحمه الله تعالى:

«والناس في هذا المقام ثلاثة: عبد محض، وحر

(١) رواه البخاري، و(**الخميصة**): ثوب خَزٍّ، أو صوف مُعَلَّم، وقوله (**انتكس**)، أي صار ذليلًا، وهذا دعاء عليه. وقوله (**شِيك**) أي دخل الشوك في عضوه. (**فلا انتقش**): دعاء عليه بأن لا يقدر على إخراجه.

(٢) انظر: «مقاصد المكلفين» للدكتور عمر سليمان الأشقر ص(٣٧٢-٣٧٥).

محـض، ومكاتَبٌ[٣]: قد أدى بعضَ كتابته، وهو يسـعى في بقية الأداء:

فالعبد المحض: عبد الماء والطين، الذي قد استعبدته نفسـه وشـهوته، وملكته وقهرته، فانقاد لها انقياد العبد إلى سيده الحاكم عليه.

والحر المحض: هو الذي قهر شـهوته ونفسه ومَلَكَها، فانقادت معه، وذلت له، ودخلت تحت رِقه وحُكمه.

والمكاتَب: من قد عُقِد له سببُ الحرية، وهو يسعى في كمالها، فهو عبد من وجه، حُرٌّ من وجه، وبالبقية التي بقيت عليـه من الأداء يكون عبدًا ما بقي عليـه درهم، فهو عبد ما بقي عليه حظ من حظوظ نفسه.

فالحر: من تخلص من رِقِّ الماء والطين، وفاز بعبودية رب العالمين، فاجتمعت له العبودية والحرية، فعبوديته من

(٣) **المُكاتبة**: معاقدة بين العبد وسيده، يكاتب الرجلُ عبدَه أو أَمَته على مالٍ مُنَجَّم أي مقسَّط ويكتب العبد عليه أنه مُعْتَق إذا أدى النجوم.

كمال حريته، وحريته من كمال عبوديته»[٤] اهـ.

وقال: «وغاية شرف النفس دخولُها تحت رِقِّ العبودية: طوعًا واختيارًا ومحبة، لا كرهًا وقهرًا كما قيل:

شرفُ النفوسِ دخولُها في رِقِّهم

والعبدُ يحوي الفخرَ بالتمليك[٥] اهـ

فالعبادة ظاهرها تذلل، وحقيقتها تعزُّز وتجمُّل:

قال الشاعر:

وإذا تذللتِ الرقابُ تخشعًا
منا إليك فعِزُّها في ذُلِّها

وقال آخر:

قوم تخللهم زَهْوٌ بسيدهم
والعبدُ يزهو على مقدار مولاهُ

---

(٤) «مدارج السالكين» (٣/ ٧٤).
(٥) «نفسه» (٢/ ٢٩).

تـــاهـــوا بـــه عَـــمَّـــن ســـــواه لـه

يا حُسْنَ رؤيتهم في حُسْنِ ما تاهوا

وقال آخر:

ومـــمـــا زادني عِـــــزًّا وفـــخـــرًا

وكـــدت بـأخـمـصـي أطـــأ الـثـريـا

دخـولـي تحت قـولـك يـا عبادي

وأن صـــيَّـــرتَ أحـــمـــدَ لـــي نبيا

وقال آخر:

يـا إلـهـي شـاقـنـي هـــذا الـوجـودْ

تـلـك دنـيـاك فـمـا بـــالُ الـخـلـودْ

عَـــزَّ قَـــدْرِي بـك في ذُلِّ السجودْ

أنـــت إن تـرضـى كـفـاني مَغنما

ليس بعد الله لي من مغنمِ

* * *

درجات الأحرار

الناس من حيث اتصافهم بالحرية درجات:

فمن الحرية ما هو أفرض الفروض، وأوجب الواجبات[1] على كل المكلفين، لا عذر لأحدٍ منهم في التخلف عنه، ألا وهو التحرر من عبادة ما سوى الله، وتوحيد الله تعالى باستحقاق العبادة، وذلك بشهادة أن لا إله إلا الله، ثم توحيد الطريق الموصلة إليه باتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك بتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم**

(١) راجع رسالة المؤلِّف: «الشهادتان أول واجب على كل إنسان».

يؤمن بالذي أُرسِلتُ به إلا كان من أصحاب النار»[٢].

ومنها درجات يتفاضل فيها المسلمون تفاضلًا عظيمًا، فإن كمال المخلوق في تحقيق العبودية لله، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله، وعَلَتْ درجتُه.

ويتسنم الذروةَ السامقة، والقمةَ الشاهقة في تحقيق هذه الحرية، عبدُ الله ورسولهُ محمدٌ -صلى الله عليه وسلم- نبيُّ الله المجتبى، ورسولُه المصطفى، وخليلُه المرتَضى، خاتَم الأنبياء، وإمامُ الأتقياء، وسيدُ المرسلين، المبعوثُ إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء.

ولولا أن الوصف بالعبودية لله أشرف وأكمل أوصاف المخلوقين لما شرفه الله به في أعلى وأسمى وأشرف المقامات:

(٢) رواه مسلم [١٥٣]، والإمام أحمد [٨٢٠٣]، [٨٦٠٩].

فقد وصفه ربه بالعبودية في مقام الوحي، فقال -عز وجل-:
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

وقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد:٩].

وقال سبحانه في مقام الجمع بين الوحي والجهاد:
﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١].

ووصفه بالعبودية في مقام الدعوة، فقال سبحانه:
﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩].

وفي مقام الإسراء فقال تبارك وتعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء:١].

وفي مقام التحدي فقال -عز وجل-: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة].

وفي مقام النصرة والتأييد قال -عز وجل-: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه سمع عمر -رضي الله عنه- يقول على المنبر: سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: «**لا تُطْروني**(٣) **كما أَطْرَتِ النصارى**

(٣) النهي هنا عن مطلق المدح أو عن المدح المجاوز للحد، يؤيد الأولَ قولُه

عيسى ابنَ مريم(٤) **، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله**»(٥) .

وحين خُيِّر -صلى الله عليه وسلم- بين النبوة مع العبودية، وبين النبوة مع المُلْكِ اختار أن يكون نبيًّا عبدًا.

وعن يحيى بن سعيد، قال: كنا عند علي بن الحسين فجاء قوم من الكوفيين، فقال علي: يا أهل العراق أحِبونا حبَّ الإسلام، سمعتُ أبي يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**يا أيها الناس! لا ترفعوني فوق قدري، فإن الله اتخذني عبدًا قبل أن يتخذني نبيًّا**»، فذكرته لسعيد بن

في آخر الحديث: «**فقولوا: عبد الله ورسوله**» أي اكتفوا بما وصفني به الله -عزَّ وجلَّ- من اختياري عبدًا له ورسولًا، وانظر: «أضواء البيان» (٧/ ٦٥٤-٦٦٣) ط. دار عالم الفوائد.

ويؤيده أيضًا: ترجمة الترمذي للحديث: «باب تواضع النبي -صلى الله عليه وسلم-» والذي يأتلف مع معنى التواضع حملُ الحديث على النهي عن المدح المطلق.

(٤) فغلَوْا فيه حتى ادعَوْا فيه الألوهية.

(٥) رواه البخاري، ومسلم.

المسيب، فقال: وبعدما اتخذه نبيًّا[٦].

وقد صلَّى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى تورمت قدماه، فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٧].

ويلي رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- في هذه الدرجة من العبودية التي هي الحرية الحقيقية: إخوانه أولو العزم من الرسل ثم سائر الرسل ثم الأنبياء الذين قال تعالى في حقهم: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات].

---

(٦) أخرجه الحاكم، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: «وهو كما قالا» اهـ. من «السلسلة الصحيحة» رقم [٢٥٥٠].

(٧) رواه البخاري، ومسلم، وغيرهما.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾[النحل:٢].

وقال سبحانه في إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. [الصافات:١١١]

وقال في نوح -عليه السلام-: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء:٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ [ص:٤٥].

وقال -عز وجل- في موسى وهارون عليهما السلام: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات:١٢٢].

وكانت أول كلمة نطق بها المسيح -عليه السلام- في المهد: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠].

وقال سبحانه في حقه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف:٥٩].

وقال -عز وجل- في شأن المسيح -عليه السلام- أيضًا: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء:١٧٢].

وقال في أيوب -عليه السلام-: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤].

وقال في داود -عليه السلام-: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧].

وقال في سليمان -عليه السلام-: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠].

ثم يأتي في مقام الحرية الكاملة أتباعُ الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ورضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي معنى هذه **(الحرية الحقيقية الكاملة)** يقول الشاعر:

أتمنى على الزمانِ مُحالا

أن ترى مُقْلَتايَ طلعةَ حُر

روى البيهقي عن الجنيد -رحمه الله- قال:

«إنك لن تكون على الحقيقة له عبدًا وشيء مما دونه لك مسترِقًّا، وإنك لن تصلَ إلى صريح الحرية، وعليك من حقيقة عبوديته بقية، وإذا كنتَ له وحده عبدًا كنتَ مما دونه حُرًّا»[1].

* * *

Ƹ f ǴǲĞ ǩ ƸǾ5ǫ

وقد تتحقق هذه الحرية الكاملة لمن هو في الظاهر مقيدٌ سجين،

وفيه قال الشاعر:

(١) «الزهد الكبير» ص (٢٨٩).

أخـــي أنـــت حُـــرٌّ بـتـلـك الـقـيـودْ

أخـــي أنـــت حـــر وراءَ الـســدودْ

إذا كـنـتَ بـــاللهِ مُـسـتـعـصِـمًـا

فــمــاذا يَـضـيــرُك كـيـدُ الـعـبـيـد

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يضع تعريفًا عجيبًا للحبس، فيقول:

«**المحبوس**: من حُبِس قلبُه عن ربه، والمأسور: من أسره هواه»[(٢)].

ويقول تلميذه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى حاكيًا عنه: «وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أينَ رُحْتُ فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

(٢) «الوابل الصيب» ص (١٠٩)، ط. دار عالم الفوائد.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلتُ لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا، وكان يقول في سجوده وهو محبوس: (اللهم أعِنِّي على ذِكرك وشُكرِك وحُسْنِ عبادتِك)، ما شاء الله..

ولما أُدْخِل إلى القلعة، وصار داخل أسوارها: نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

وعلم الله ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها.

ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرجاف، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأَسَرِّهم نفسًا: تلوح نضرة النعيم على وجهه»[٣].

(٣) «الوابل الصيب» ص (١٠٩، ١١٠)، وانظر: «مجموع الفتاوى»

وما زال شـيخ الإسـلام في محنته صابرًا على بلواه حتى وافته المنية مسجونًا (سنة ٧٢٨هـ) فرثاه ابن الوردي بقوله:

وحَبْسُ الـدُّرِّ في الأصـداف فخرٌ
وعند الشيخ بالسجن اغتباطُ
بــآل الـهـاشـمـيِّ لــه اقــتــداءٌ
فقد ذاقــوا الـمَـنونَ ولـم يُـواطُـوا

والمقصـود: أن العبودية تقتضـي الحرية، والحرية من كمال العبودية.

* * *

التوحيد يُحرر الإنسان من عبودية الهوى

الهـوى: هـو ميل النفـس إلى الشـيء، وفعلـه: هَوِيَ: يَهـوَى، هَوًى، مثل عَمِـيَ، يعمى، عَمًى، وأمَّـا هَوَى يَهْوِي

(٣/ ٢٥٩).

بالفتح فهو السقوط، ومصدره الهُوِيُّ بالضم، ويقال الهوى أيضًا على نفس المحبوب، قال الشاعر:

إنَّ التي زعمتْ فؤادَكَ مَلَّها

خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

ويقال: هذا هوى فلانٍ، وفلانةُ هواه، أي: مَهْوِيَّتُه ومحبوبته.

وأكثر ما يُستعمل في الحبِّ المذموم، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات]. ويُقال: إنما سُمِّيَ هوًى؛ لأنه يهوي بصاحبه. وقد يُستعمل في الحبِّ الممدوح استعمالاً مقيَّدًا. ومنه ما رُوي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: «**لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لما جِئْتُ به**».

وفي الصحيحين عن عُروة قال: كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللاتي وهَبْنَ أنفسهن للنبي -صلى الله عليه وسلم-،

فقالت عائشة -رضي الله عنها-: أما تستحيي المرأة أن تهب نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥١] قلتُ: يا رسول الله! ما أرى ربَّك إلا يُسارعُ في هواكَ.

وفي قصة أُسارى بدرٍ قال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «فهَوِيَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما قال أبو بكر -رضي الله عنه- ولم يَهْوَ ما قلتُ». رواه مسلم.

وفي السنن أن أعرابيًّا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: جئتُ أسألك عن الهوى، فقال: «**المَرْءُ معَ من أحبَّ**».

قال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى:

«الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه. وهذا الميل خُلِقَ في الإنسان لضرورة بقائه. فإنه لولا ميله إلى المطعم، والمشرب، والمنكح؛ ما أكل، ولا شرب، ولا نكح. فالهوى مستحِثٌّ له لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه

ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقًا، ولا مدحه مطلقًا، كما أنَّ الغضب لا يُذَمُّ مطلقًا،ولا يُحمد مطلقًا، وإنما يُذَمُّ المُفْرِط من النوعين، وهو ما زاد على جلب المصالح، ودفع المضار.

ولمَّا كان الغالب ممن يطيع هواه وشهوته وغضبه: أنَّه لا يقف فيه على حدِّ المنتفَع به؛ أُطلِق ذمُّ الهوى، والشهوة، والغضب؛ لعموم غلبة الضرر؛ لأنَّه يندر من يقصد العدل في ذلك، ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه، بل لا بدَّ من غلبة أحد الأخلاط والكيفيات عليه، فحرص النَّاصح على تعديل قُوَى الشَّهوة والغضب من كلِّ وجهٍ، كحرص الطَّبيب على تعديل المِزاج من كلِّ وجه، وهذا أمرٌ يتعذَّر وجودُه إلا في حقِّ أفرادٍ من العالَم، فلذلك لم يذكر الله الهوى في كتابه إلَّا ذمَّه، وكذلك في السُّنَّة لم يجئ إلا مذمومًا، إلا ما جاء منه مُقَيَّدًا، كقوله

-صلى الله عليه وسلم-: «**لا يؤمنُ أحدكم حتَّى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وقد قيل: الهوى كمينٌ لا يُؤمَن. قال الشَّعْبي: وسُمِّيَ هوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحبه، ومطلقُه يدعو إلى اللَّذَّة الحاضرة من غير فكرٍ في العاقبة، ويحثُّ على نيل الشَّهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا لأعظم الآلام عاجلًا وآجلًا، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة، والهوى يُعمي صاحبه عن ملاحظتها، والمروءة، والدين، والعقل ينهى عن لذةٍ تُعقب ألمًا، وشهوة تورثُ ندمًا، فكلٌّ منها يقول للنَّفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي! والطَّاعة لمن غَلَب، ألا ترى أن الطفل يُؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلى التَّلَف؛ لضعف ناهي العقل عنده؟! ومن لا دين له يؤثر ما يهواه؛ وإن أدَّاه إلى هلاكه في الآخرة؛ لضعف ناهي الدِّين، ومن لا مُروءَة له يُؤثر ما يهواه وإن ثَلَمَ مُرُوءته، أو هدمها؛ لضعف ناهي

المـروءة، فأين هذا من قول الشـافعي رحمـه الله تعالى: لو علمتُ أنَّ الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته.

ولمَّـا امتُحِنَ المكلَّـف بالهوى من بين سـائر البهائم، وكان كل وقـت يحدث عليه حـوادث؛ جُعِلَ فيه حاكمان: حاكم العقـل، وحاكم الدين؛ وأُمِرَ أن يرفع حوادثَ الهوى دائمًـا إلى هذيـن الحاكمين، وأن ينقـاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليسـتمرَّ بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه»[1].

❊ ❊ ❊

حاجة البشرية إلى الوحي الإلهي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

«الرسـالة ضروريـة للعباد، لا بدَّ لهـم منها، وحاجتهم إليهـا فـوق حاجتهم إلى كل شـيء، والرسـالة روح العالم

(١) «روضة المحبين» ص (٦٢٩ - ٦٣١).

ونوره وحياته، فأيُّ صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينالـه من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأمَّا الكافر فميت القلب في الظلمات».

وبيَّن رحمه الله تعالى: «أن الله سمَّى رسالته رُوحًا، والروح إذا عُدِمَ فُقِدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢]،

فذكر هنا الأصلين، وهما: الروح، والنور، فالروح الحياة، والنور النور». وبيَّن رحمه الله تعالى: «أن الله يضرب الأمثال للوحي الذي أنزله حياة للقلوب ونورًا لها بالماء الذي ينزله من السماء حياة للأرض، وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [الرعد:١٧]».

يقول شيخ الإسلام -رحمه الله- معقبًا على الآية:

«فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياةَ القلوب، كما أنَّ بالماء حياةَ الأبدان، وشبَّه القلوب بالأودية، لأنَّها محلُّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلبٌ يسع علمًا كثيرًا، وواد يسع ماءً كثيرًا، وقلب يسع علمًا قليلًا، وواد

يَسَـع ماءً قليلًا، وأخبر تعالى أنَّه يعلو على السـيل من الزبد بسـبب مخالطـة المـاء، وأنه يذهـب جُفـاءً، أي: يُرمى به، ويُخفـى، والـذي ينفع النـاس يمكث في الأرض ويسـتقر، وكذلك القلوب تخالطها الشـهوات والشبهات، ثم تذهب جفـاءً، ويسـتقر فيهـا الإيمان والقـرآن الذي ينفـع صاحبه والناس»[٢].

وقال الإمام المحقق ابن القيم رحمه الله تعالى:

«ومـن هاهنـا تعلـم اضطرار العبـاد فـوق كل ضرورة إلى معرفة الرسـول، وما جـاء به، وتصديقـه فيما أخبر به، وطاعتـه فيمـا أمـر، فإنه لا سـبيل إلى السـعادة والفلاح لا في الدنيـا، ولا في الآخرة إلَّا على أيدي الرسـل، ولا سـبيلَ إلى معرفة الطيب والخبيـث على التفصيل إلَّا مِن جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطَّيِّب من الأعمال

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩٣ -٩٦).

والأقـوال والأخلاق ليـس إلا هديهم وما جـاؤوا به، فهم الميزانُ الراجح، الذي علـى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم تُـوزن الأخلاق والأعمـال، وبمتابعتهم يتميـز أهل الهدى مـن أهـل الضـلال، فالضـرورة إليهـم أعظم مـن ضرورة البدن إلـى روحه، والعين إلى نورها، والـروح إلى حياتها، فأيُّ ضرورة وحاجة فُرِضَتْ، فضـرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

ومـا ظنك بمن إذا غـاب عنك هديه وما جـاء به طرفةَ عين، فسـد قلبُك، وصار كالحـوت إذا فارق الماء، ووُضع في المِقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسـل، كهذه الحال، بل أعظمُ، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلبٌ حَيٌّ

ما لِجُرحٍ بميتٍ إيلامُ

وإذا كانت سـعادةُ العبدِ في الداريـن معلقةً بهدي النبي -صلى الله عليه وسـلم- فيجِب على كل من نصح نفسـه،

وأحبَّ نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه مَا يَخْرُجُ به عن الجاهلين، ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه، والناس في هذا بين مستقلٍّ، ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو فضلٍ عظيم»[(٣)].

وقد عقد الإمام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» مقارنة بيَّن فيها أن حاجة الناس إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدَّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، قال:

«حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية، فوق حاجتهم إلى كل شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها، ألا ترى أنَّ أكثر العالم يعيشون بغير طبيب، ولا يكون الطبيب إلا في بعض المدن الجامعة، وأمَّا أهل البدو كلهم، وأهل

(٣) «زاد المعاد» (١/ ١٥).

الكُفـور[٤] كلُّهم، وعامة بني آدم فـلا يحتاجون إلى طبيب، وهـم أصحُّ أبدانًـا، وأقوى طبيعة ممن هـو متقيد بالطبيب، ولعلَّ أعمارهم متقاربة.

وقـد فطر الله بني آدم على تناول مـا ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكلِّ قوم عادة وعرفًا في استخراج أدويةِ ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إنَّ كثيرًا من أصول الطب إنما أُخِذت من عوائد الناس، وعُرْفهم وتجاربهم.

وأمَّـا الشـريعة فمبناهـا علـى تعريف مواقـع رضا الله وسَخَطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إليها أشدُّ من الحاجة إلى التنفس فضلًا عـن الطعام والشـراب، لأنَّ غاية مـا يُقَدَّرُ في عـدم التنفس والطعام والشـراب مـوتُ البدن، وتعطل الـروح عنه، وأما مـا يقدر عند عدم الشـريعة ففسـاد الـروح والقلب جملة،

(٤) **الكُفور**: القُرى الصغيرة. جمع كَفْر.

وهلاك الأبد، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت.

فليس الناس قطُّ إلى شيء أحوجَ منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- والقيام به، والدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالَم صلاح بدون ذلك ألبتة، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر»[1].

***

العداوة بين الوحي والهوى

بيَّن -عز وجل- أن الهوى إله باطل يعبده بعض الناس من دون الله الحق، ويتحرر الإنسان من اتباع الهوى، باتباع الوحي والهدى. قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣].

(١) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٨٦٣، ٨٦٤)، ط. دار عالم الفوائد.

وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣].

ومصدر الهدى ينحصر في الوحي الإلهي:

قال -عز وجل-: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ:٥٠].

ولذلك أمر تعالى باتباعه والتمسك به:

قال سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف:٤٣].

وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وامتثل -صلى الله عليه وسلم- **أمر ربه:**

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ [الأعراف:٢٠٣].

وقال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [يونس:١٥].

وحذره -عز وجل- من اتباع أهوائهم:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة:٤٩].

وقال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوى منبع الضلال وسبب الهلاك:

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١١٩].

وقـال تعالـى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠].

وقـال سـبحانه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وقـال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه].

وقـال سـبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف].

والوحي والهوى ضِدَّانِ لا يجتمعان:

قال -عز وجل-: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص:٥٠].

وقال سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة:٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم:٢٣].

* * *

التوحيد يُحرر الإنسان من عبودية المناهج والأفكار والتشريعات

«..وتاهت البشرية في عبودية من نوع آخر، وهي عبودية المناهج والأفكار، فالبشر في كل عصر وجيل تتفتق أذهان أذكيائهم وفلاسفتهم عن مبادئ ومناهج وقوانين ونظريات، يُحَكِّمونها في رقاب العباد، وهي مناهج وقوانين تحاد شرع الله وحكمه، وقد شاء الله أن يكون الحُكْمُ بين العباد

بيده دون سواه، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف:٤٠]، ولم يرض الحق أن يُتخذَ معه شريك في حكمه ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[الكهف:٢٦]، وقد ذَمَّ الله اليهود والنصارى الذين أطاعوا أحبارهم ورهبانهم عندما خالفوا الشرع الذي بأيديهم، فأحلوا وحَرَّموا بآرائهم، وقال فيهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة:٣١]، ولكن الأمر العجيب أن أكثر الناس في كل العصور يرفضون منهج الله تعالى وحكمه، ويرتضون قوانين البشر وأحكامهم التي تُعَبِّدُهم للعباد، وقوانينُ البشر ومبادؤهم مختلفة متضاربة، وكل فريق يزعم أنه على الحق والهدى، وأن منهجه هو الذي يحرر الإنسان، ويجلب له الخير والهناء، ويقوم الصراع بين أتباع المناهج وينتهي في أغلب الأحيان بحروب تُحْرِق الأخضرَ واليابس

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. [البقرة:١١٣]، لقد أنزل الله الكتاب في كل العصور ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فيُحقُّ الحقَّ ويبطل الباطل ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣].

إن الحرية في الإسلام تقرر في صورة العبودية، إن الحرية تعني أن تُعَبِّدَ نفسَك لله وحده، في توجهات قلبك وعقائده، وفي مسار فكرك ونوازعه، وفي أقوالك وأفعالك، وفي القوانين التي تهيمن على المجتمع وتُسَيِّرُه، وكثير من الحريات التي يتشدق بها العباد في هذا العصر، إنما

هـي العبوديـة في نظـر الإسـلام، ولنعتـبر هـذا بما يُسـمى بالديمقراطيـة اليوم، فالبشـر يرون أن تحقيـق الديمقراطية هـو قمة الحرية التي يمكـن أن يُحَصِّلَها العباد اليوم، حيث ينتخبون ممثلين عنهم يشـرعون للأمة ما يشاؤون، وهذا في تصور الإسـلام عبودية البشـر للبشـر، وتأليه البشر للبشر، فليس من حق العباد أن يشرعوا فينا ما لم يأذن به الله، وليس مـن حقهم أن يقودوا الحياة بمجرد فكرهم، فإن فعلوا فهم أرباب مـن دون الله، وقد ذم الله اليهـود والنصارى لكونهم اتخـذوا علماءهم ورهبانهم أربابًـا من دون الله، وعلمنا من تفسير الرسـول -صلى الله عليه وسلم- أن المراد بجعلهم أربابًـا من دون الله هـو متابعة اليهود والنصـارى علماءهم ورهبانهـم في تحليل مـا حرم الله، وتحريم مـا أحل الله، مع كونهم ملتزمين بشريعتهم بصورة من الصور، فكيف بالأمم المعاصـرة عندما تعطي لممثلي الشـعب الحريـة المطلقة

في تشـريع ما يشـاؤون، وتحليل ما عُلِمَ تحريمه في دين الله بالضرورة، إن هذا في مفهوم الإسـلام عبودية وأي عبودية، يعبد البشر فيها البشـر، والعجيب أن أكثر الأمم يرونها قمة الحرية، إن التحرر الحقيقي يعني الخضوع لله وحده، وأخذ منهجه دون سـواه، والتحاكم إلى شـرعه دون بقية الشرائع والقوانين، فإن رفض البشـر هذه العبودية لله الواحد الأحد فإنهم سـيُعبِّدون أنفسـهم لا محالة لمخلوقات مساوية لهم وهم البشر، أو لمخلوقات أقل منهم شأنًا، وقبيح بالإنسان أن يُعَبِّـد نفسـه لمخلـوقٍ مثلـه لا يضر ولا ينفـع، بل قد لا يُبصر ولا يسـمع. إن الذي يسـتحق العبـادة هو من اتصف بصفات الألوهية الحقة»[1].

* * *

---

(١) «أثـر الإيمـان في تحرير الإنسـان» ص (٢٩،٣٠) بتصرف، وانظر: «أضـواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٦٢٢) ط. دار عالم الفوائد، و«الشريعة الإلهية» للدكتور عمر الأشقر.

جوهر الخلاف

بين الموحِّدين الأحرار وبين عبيد الأهواء

لا مشكلة عند من اتبعوا أهواءهم من الليبراليين[٢]، والعالمانيين[٣] في:

---

(٢) **الليبرالية**: دين أرضي من صنع البشر، يتصادم مع الإسلام بالكلية، فالليبرالية الفكرية والدينية تقول: «اعبد أيَّ شيء، فلن تُسأل عن شيء».
وتدعي أن لا دين يحتكر الحقيقة المطلقة، وتعتبر التدين شأنًا يتعلق بالحرية الفردية، ويرتبط فقط بالوجدان والذوق الشخصي وليس بالأحكام.
والليبرالية الاجتماعية تقول: «لا» لقوامة الرجولة، و«لا» لرابطة العقيدة الإيمانية، و«لا» لمرجعية الشريعة الإسلامية.
والليبرالية السياسية تقول: الحكم لكل شيء إلا لله! والليبرالية الاقتصادية تقول: اكسب من كل شيء، وأنفق في أي شيء.

(٣) **العالَمانية**: نسبة إلى هذا العالم المادي الدنيوي، فهي اللادينية أو الدنيوية، لا بمعنى ما يقابل الأخروية فحسب، بل بمعنى «ما لا صلة له بالدين» أو «ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد».
جاء في «دائرة المعارف البريطانية»: «العالمانية: حركة اجتماعية = = تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها».

- أن يشهد العبد بأن «لا إله، والحياة مادة» لأن الإلحاد في زعمهم حق لمن شاء أن يدين به، وذلك طبقًا لمبدأ حرية الاعتقاد.

ولا مشكلة لديهم في أن يشهد العبد أن «لا ربَّ إلا الله» لأن هذا هو توحيد الربوبية بمعنى أنه هنا يقرر بأن الله له وحده الخَلْق.

- وليس لديهم مشكلة كبيرة في أن تقول: «الله إله».

وفي قاموس «أكسفورد»: «الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسًا للأخلاق والتربية».

وفي قاموس «وبستر»: «اتجاه في الحياة أو في أي شأنٍ خاص يقوم على مبدأ أن الدين والاعتبارات الدينية يجب أن لا تتدخل في الحكومة».

إذن فالعالمانية تفصل الدين عن الحياة، وقد تقبله بشرط أن يُحبَس داخل القفص الصدري أو داخل جدران المساجد، وقد تقر بوجود الإله، لكنه نفس التصور الأرسطي للإله، الذي يدَّعي أنه خلق العالم، ثم حركه ثم تركه، دون أن يعلم عنه شيئًا، تمامًا مثل ملك الإنكليز يملك ولا يحكم، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

- وليس لديهم مشكلة في أن تقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

إن المعضلة الكبرى عندهم في هذه الكلمة التي تنسف الآلهة الباطلة نسفًا: «لا إله إلا الله» أي: لا إله حق يستحق أن يُفرد بالعبادة إلا الله -عز وجل-، مشكلتهم الكبرى في (الحَصْر) الذي يفيده النفيُ والاستثناء.

فالأديان عندهم متساوية، ولا يجوز عندهم أن نرفع شعار «الإسلام يعلو ولا يُعْلى».

ولا يجوز عندهم التفريق بسبب العقيدة بين المؤمن والكافر لأن هذا (تمييز).

إن المشكلة عندهم ليست في قول: «ألا له الخَلْقُ» ولكنها في قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٥].

وليست المشكلة في قول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾

لكنها في قوله -عز وجل-: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف:٨٤].

ليست المشكلة في أن تقول: «الإسلام دين» لكنها في أن تقول: الإسلام هو الدين الحق الوحيد في هذا الوجود، وما عداه باطل.

ليست المشكلة عندهم في (اتباع الهوى) لكن المشكلة كل المشكلة في (اتباع الوحي الإلهي) فيما يتعلق بقيادة سفينة المجتمع، وتوجيه مسيرته.

***

- إن مظاهر تحرير «لا إله إلا الله» للكائن الإنساني عديدة، فإلى جانب ما تقدم:

- هناك تحرير الإنسان من عبادة مظاهر الطبيعة التي هي في حقيقتها آيات باهرة دالة على قدرة الله وتوحيده، وهي نفسها في حالة عبودية لله وانقياد قهري له -عز

وجل- قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

- وهناك تحرير الإنسان من عبودية الأوثان والأصنام الصم البكم الجامدة[٤] وعبادة الأموات الذين لا

(٤) ولقد تردى بعض البشر إلى حد أن عبد الحيوانات من دون الله عز وجل، فهذا الزعيم الهندوسي «غاندي» يتحدث عن إلهه «البقرة» بفخر فيقول: «عندما أرى البقرة لا أجدني أرى حيوانًا لأني أعبد البقرة، وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع». ولقد قاده عقله إلى تفضيل أمِّه البقرة على أمِّه التي ولدته: «وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأُمُّ الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين، وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكنَّ أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائمًا ولا تطلب منَّا شيئًا مقابل ذلك سوى الطعام العادي..» ومضى عابد البقرة يقارن بين أمه البقرة وأمه الحقيقية موردًا الحجج والبراهين على أفضلية أمه البقرة على أمه الحقيقية إلى أن قال: «إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال، وأنا أعدُّ نفسي واحدًا من هؤلاء الملايين».

وفي «الهند» معبد فخم مكسو بالرخام الأبيض تُرسَل إليه الهدايا والألطاف من شتى أنحاء الهند، بقي أن تعلم أن الآلهة التي تُقدم لها القرابين، وترسَل

يملكون لأنفسهم - فضلًا عن غيرهم - ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

- وهنـاك تحرير البشـر من عبادة البشـر من الملوك - كفرعـون - أو عبـاد الله الصالحين كعيسـى عليه السـلام، قـال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران].

قال الأستاذ إبراهيم خليل أحمد[٥]:

«اسـتوقفني كثيـرًا نظام التوحيد في الإسـلام، وهو من

لها النذور في ذلك المعبد الفخم إنما هي الفئران.

(٥) كـان قسًّا منصِّرًا يحمل أعلى الشهادات اللاهوتية، وكـان دؤوبًـا في التنفير عـن الإسـلام، ثـم هـداه الله إلـى ديـن الـحق، وأعـلـن إسلامـه في (٢٥/ ١٢/ ١٩٥٩م).

أبـرز معالم الإسـلام. إن التوحيد يجعلني عبـدًا لله وحده، لست عبدًا لأي إنسان، التوحيد في الإسلام يحرِّر الإنسان، ويجعله غير خاضع لأي إنسان، وتلك هي الحرية الحقيقية، فلا عبودية إلا لله وحده» اهـ.

- هناك تحرير الإنسـان من عبودية الشهوات واللذائذ والرغبـات في منهج متـوازن يلبي أشـواق الفطرة، ويحفظ حرماتِ النـاس، ويصون حرماتِ الله، ويعطي كلَّ ذي حق حقَّه.

- وهناك تحريره من عبودية القيم الاجتماعية الظالمة قيم المال والجاه والحسب والنسب في ضوء القاعدة الإلهية العادلة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]

- وهنـاك تحريـره من عبوديـة الخوف علـى الحياة، والقلـق على الـرزق، بضمانِ جريـانِ القَدَرِ السـابقِ بكتابةِ الرزق والأجل.

- وهنـاك التحـرر مـن مِنـة الخلق بسـؤال الله وحده، وإيقاع الحاجات به دون سواه، لأن الله هو الصَّمَد.

- وهنـاك تحريـر الرقـاب، ومنهج الإسـلام الرائع في التعامل مع قضية الرق.

والخلاصـة: أن «لا إلـه إلا الله» فيها الحريـة، وبها يتم التحـرر من كل ألوان العبودية لغير الله، وبها يبقى الإنسـان عبدًا لله وحده دون سواه.



فهرس الموضوعات



